

مصلحة الكتمان

الشيخ
يوسف بن محمد المطلق

مصدر هذه المادة :







مقدمة

الطبعة الأولى

الحمد لله الحنّان المنّان، والصلاة والسلام على رسول الله العدنان، قائد الغر المحجلين وحبيب الرحمن.

أما بعد:

فهذه الرسالة تكتب لهذا الأوان، لمعالجة مشكلة الهذيان، عند غالب أهل الزمان، لاسيما في وقت بث العدو له أعياناً، يتلبسون بكل ملبس لكشف عباد الرحمن، لحرمانهم من نعم الله بالأمان، ويأبى الله إلا أن يتم نوره وهذا الفرقان، فأجمع أهل الحق أنه لا فضل مثل الكتمان، فيما وكل إليه ولي الأمر من هذا الشان، كما أجمع أهل البصيرة في كل آن، على أن كتم الحق والعلم والعدل مجلبة للخسران، فكم من جاهل باع ذمته لأعوان الشيطان، ومنهم من كشفه الله فنال العقوبة والحرمان، ومنهم من مات خائنًا، فويل له يوم ينصب الميزان، وعندما ينادى به إن هذا الخائن فيما كان، ويسحب على وجهه في النيران، يوم تقلب وجوههم في النار بسبب العصيان، يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول بعصيان الشيطان، ولكنها سنة الله لو اطلع عليها الثقلان، لزهقت الأرواح من الأبدان، فطوبى للمتمسكين بهدي المولى وسنة سيد الجنان، القائل: «من كان يؤمن بالله واليوم لآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » مشيرًا إلى اللسان.

الكتمان

1- حفظ اللسان:

عن قول الباطل

عن قول الزور

عن كشف السر للعدو

عن قيل وقال من

عن إبداء المعايب إيذاءً

عن احتقار المسلم

عن التفيهق وتقديس

2- نطق اللسان:

لتقديس الله تعالى

لنشر الحق والدعوة له

لنشر العدل وبيانه

للأمر بالمعروف ونصره

للنهي عن المنكر وكبته

لإيضاح الكتاب والسنة

للمصالح الذاتية بلا ضرر

كشف الكتمان:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ **[البلد، الآية: 9]**. أكرم الله عباده حيث جعل لهم السنة تنبئ عن مكنوناتهم الخفية، كما جعل لهم عقولاً تقيد ألسنتهم عن الزلل وكل بحسبه، فإذا قصر عقل الإنسان انطلق لسانه ينطق بلا روية.

وقد اهتم الحكماء والشعراء وغيرهم بهذه المسألة ولو لم يرد سواها لكفى، بينما رب العزة أشار إلى هذا فقال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ **[ق، الآية: 18]**. وأوضح رسوله ﷺ ما يكفي ويشفي مما هو آت إن شاء الله تعالى.

إبداء الكتمان:

يبقى كيان الأمة الممثل بحكمها وملكها ما لم تتسرب

المعلومات لأعدائها بأي وسيلة كانت وإن كانت هذه الوسائل تكافح ،ولكن المشكلة في ثرثرة المطلع، فبحسن نيته يبين المعلومات المؤتمن عليها من قبل الوالي أو لحب المظهر، وأمثالهم يخدعون بواسطة المديح أو الإِطراء من أصحابهم أو نسائهم.

الهيبة بالكتمان:

الصمت من دلائل العقل والهيبة والجلال ومن تكلم بان لمستمعه الواعي مقامه، وأعظم من يستلزم له الصمت صاحب المسؤولية، لما يترتب على كلامه من معلومات قد تضر بالصالح العام. وقد قال الرسول ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**». وقوله ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**». متفق عليه.

استكشاف الكتمان:

لا يتجرأ العدو على أمة ما لم يكن على علم بجميع عدتها غالبًا بواسطة المعلومات التي تبذل بشتى الوسائل من أبرزها الإِغراء بالمادة أو إيقاع أهل السر بواسطة المسكرات أو النساء أو التهديدات إن لم يكن صاحب السر مؤمنًا ومراقبًا لربه تعالى حذرًا ومخلصًا لأمته وأولياء الأمور. والمتتبع لحوادث الزمان يجد الفطن ما يبذله الأعداء من النفقات للحصول على ما يريدون.

تضحية الكتمان:

إن المقدر للمصلحة العامة يضحي بالنفس والنفيس ليجنب بلاده الأعداء، ويحفظ سرها، فإن سئل عن مقر جند تحقق من

السائل، وحفظ سرهم، أو عن مصنع أو مقر جماعته، وهكذا... ولو أجبر لكي لا يعرض المسلمين لأخطار العدو.

أما المختص فمسئوليته بالكتمان أعظم لثقة إمام المسلمين به، لاسيما أن العدو إذا تمكّن في الأرض حمّل أهلها ببلاءٍ لا يطاق، ويجعل الأعزة أذلة والأغنياء فقراء، والأقوياء ضعفاء، والآمنين خائفين، وينشر الفساد ويسفك الدماء، ويشرد الضعفة. ولهذا قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ **[النمل، الآية: 34]**. ولعله لا يستغرب تضيحة ذلك الرجل عندما دخل العدو أرضه ووجدوه مع ابن له فقالوا له: دلنا على قومك [1] فقال لو دللتكم لأخبر عني هذا الغلام فاقتلوه بعد أن تأكد أن العدو يريد قتل قومه، فضحى بغلامه فقتلوه فقال... أما الآن فاعملوا ما شئتم!. فتعجبوا لهذه التضحية وتركوا قومه مهابة وإجلالاً، لما رأوا رجلاً من أطراف القوم!.. في تضحيته.. وهكذا المخلص.

من صفات أهل الكتمان:

أن يكون موثوقًا به في دينه، مخلصًا أمينًا لما يسر إليه، عليمًا لما يترتب عليه من إفشاء السر على أمته من ويلات وهلاك. والسر يكبر شأنه ويصغر، وأمثال ذلك كثير نكتفي بما يلي:

1- إذا أمر على فرقة ما استحسن لولي الأمر أن يغير جهة مبدئها أو وقت خروجها والأدلة في ذلك كثيرة.

---

(1) أي بين المسالك الجبلية.

2- إذا اتفق على «رمز» كتم ولو على أقرب قريب!

3- إذا وضعت العدة في مكان ما، حوفظ على سريته وكتمان موقعه.

4- إذا جلبت صفقة ما يحرص على الاحتفاظ بنوعيتها لكي لا يأخذ العدو ما يضادها. وإن كانت الظروف تتغير لاسيما بعد الوسائل الحديثة لاكتشاف غالبها.

5- يتغير أمر الكتمان وإيضاحه عند الوالي بحسب المقام لاسيما أن الحرب خدعة والمحاربة الكلامية لها موقعها في النفوس.

الأمر بالكتمان:

لما تأكد في العرف العام أن الجرأة من العدو غالبًا بعد معرفة السرائر، فقد بذل المال بسخاء لنيل المعلومات الأساسية، ومن هنا كانت الحوادث التاريخية تشهد لهذه المواقف، ومن قديم الزمان ما يدهش الواقف، والقصص في هذا الشأن كثيرة للأحوال الشخصية وللأمور العامة ولنذكر للكتمان طرفًا منها.

1- كتمان يوسف عليه السلام، عندما رأى رؤيا قال الله تعالى عما أمر يعقوب ابنه يوسف: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ **[يوسف، الآية: 5]**.

ولكتم إخوته الخبر عن أبيهم فقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ **[يوسف، آية: 17]**. ولقصته عليه السلام عندما دخل عليه إخوته: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا

يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف، الآية: 77].

2- الكتمان عن قوم لوط عليه السلام حيث أخبرته الملائكة وكتم الخبر عن قومه وامرأته فقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾. [هود، الآية: 81].

3- الكتمان عن قوم شعيب، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود، الآية: 94].

4- الكتمان عن قوم مريم، عليها السلام، لقوله تعالى: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم، الآية: 26].

5- الكتمان للعذاب بصفة عامة، لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إلى أن قال ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [الأنبياء، الآيتان: 38، 40].

6- الكتمان المؤقت في قصة إبراهيم عليه السلام عندما حطم الأصنام، لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء، الآيتان: 62، 63].

7- الكتمان البدني كقصة أهل الكهف، لقوله تعالى ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا

رَشَدًا﴾ إلى أن قال ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ **[الكهف، الآيات: 10–20]**.

8- كتمان الخضر على موسى سبب عمله، وفي هذا مغزى عظيم ﴿* قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ **[الكهف، الآيات: 67–70]**.

9- كتمان مؤمن لإيمانه من آل فرعون بان من نصحه، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ **[غافر، الآيات: 28، 29]**.

10- كتمان مؤقت كقصة زكريا عليه السلام لقوله تعالى: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ **[مريم، الآية: 9]**.

11- الكتمان البدني حيث اعتزل إبراهيم ﷺ، قومه لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم، الآية: 48]. ولقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية: 71]. ولقوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء، الآية: 76]. ولقوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء، الآية: 87].

12- الكتمان في الاعتداء، وإن مَكَرَ أحَدٌ فَمَكْرُ الله خيرٌ من مكرهٍ، كقصة قوم صالح لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل، الآيات: 48–51].

13- كتمان أم موسى لموسى أثناء طفولته خشية من فرعون ليقتله، لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص، الآية: 7]. وكتمانها أيضًا عندما عرض لإرضاعه فقال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص، الآيتان: 11، 12].

14- كتمان موسى عليه السلام ما وقع منه عند قتله لعدوه، فقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ **[القصص، الآية: 15]**.

15- كتمان الله على عباده أجل الأمور، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ **[لقمان، الآية: 34]**.

16- كتمان محمد ﷺ نفسه وصاحبه في الغار عندما قرر الهجرة، لهذا يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ **[التوبة، الآية: 40]**.

ولقصته ﷺ عندما بعث عبد الله بن جحش الأسدي ومعه رسالة مكتومة حيث أمره ﷺ ألا يفتحها إلا بعد يومين من مسيره وهو لا يعلم أين اتجاهه! فلما كشف الرسالة فإذا بها: « **إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل «نخلة» بين مكة والطائف فترصد بها قريشًا وتعلم لنا من أخبارهم**».

وفي بني أسد حيث لهم سرية مكونة من مائة وخمسين شخصًا لما علم عن نياتهم بالمسلمين فكانوا «يكمنون» نهارًا ويسيرون ليلاً حتى باغتوهم في وقت لا يأملون عدوًا وهذا كتمان عملي.

ومثله عندما توجه ﷺ إلى دومة الجندل فكان يكمن نهارًا ويسير ليلاً.

17- الكتمان الحاصل في غزوة الأحزاب حيث بعث رسول الله ﷺ رجلاً يستكشف له الأمر ويلحن في جوابه [1]. وكذلك ما فعله نعيم عندما أسلم حتى تسبب في تفريق شمل العدو.

18- الكتمان في تغيير الاتجاه كما فعل الرسول ﷺ في غزوة بني لحيان حيث قفل شمالاً ثم انحرف جنوبًا إلى الهدف..

19- الكتمان عندما عزم النبي ﷺ على فتح مكة فقد أمر عائشة رضي الله تعالى عنها بتجهيزه، ولم تعلم عن اتجاهه وهي زوجته! فقد أُسْدل ستارٌ عظيمٌ من الكتمان على الاتجاه حتى رحل رسول الله ﷺ وجيشه حتى قرب إلى أربعة فراسخ من مكة، قال الله تعالى ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾ **[سورة النصر]**.

20- الكتمان في مجالسه الشورية مما لا يتسع له هذا الإيجاز!

21- الكتمان لموت سليمان عليه السلام: قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا قَضَيْنَا**

([1]) أي يجيب الرسول بكلام لا يفهم مدلوله سامع.

عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ، آية: **14**]. وفي هذا الكتمان إفهام الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب لأن الله قد اختص به، ولو كان عند الجن علم الغيب ما صبروا حولاً على تعذيبهم، والقصة بطولها في الجزء الثالث من تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى مشيرًا لها تفسير سورة سبأحول هذه الآية.

* * * *

فصل: نتيجة الكتمان

لما علم مما سبق أثر الكتمان وما فيه من المصالح العامة والخاصة، عُرف أنه من الكتمان ما يحقق مصلحة المسلمين لكتمان النقاط الآتية منها:

1- **كتمان العمل** الذي وليت عليه لكي لا يتضح للعدو.

2- **كتمان الأموال** التي استودعت عليها من قبل الوالي.

3- **كتمان الذخيرة** التي اؤتمنت عليها. من قبل الوالي.

4- **كتمان المعلومات** التي أبلغك بها الوالي.

5- **كتمان الأماكن** التي تحت أيدي المسلمين عن الأعداء.

6- **كتمان الخطبة** حتى يتم النكاح.

7- **كتمان الرؤيا** للمصالح إلى على مؤول معروف.

8- **كتمان المشتريات** التي أمر الوالي بجلبها.

9- **كتمان الشخص** الذي يريده الأعداء لقتله ما لم يكن منحرفًا وفق الشرع.

10- **كتمان العقاب** ممن يريد الله بهم بأسًا كما كتم العذاب عن الأمم المعاقبة.

مما سبق تعلم أن الكتمان يكون في ما تعلمه، وما تبلغُهُ، وما سمعته، وما رأيته، وما أعددته، وما كتبته، وذلك كله وفقًا لما ائتمنك الله عليه، ثم ولاة الأمور، وتقيدًا بطاعة الله وطاعة رسوله، ثم طاعة أولياء الأمور.

خطر الكتمان

لا يجوز الكتمان في كل مقام، ولدى كل إنسان، لأن الأمور تختلف بحسب مدلولاتها، فالأمر الذي في إباحته ضرر عام أو خاص سبقت الإشارة إليه، أما كتم الحق من العلم والإرشاد والتوجيه فهذا ضرر عام يماثله إفشاء المعلومات التي في صالح العدو وأعظم خطرًا عندما تخرس ألسنة الحق لنشر النور والهدى، ولهذا توعد الله الكاتمين بالوعيد الشديد والعذاب الأليم. ذلك لما يترتب على سكوتهم من نشر الفساد وهتك الأعراض وسفك الدماء بغير حق، وعبادة الأوثان والذوات. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ **[البقرة، الآيتان: 159، 160]**. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ **[البقرة، الآيتان: 174، 175]**.

هذا وقد أخذ العهد على تبيين العلم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ **[آل عمران: الآية: 187]**. ولهذا قال ﷺ: «**من سئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار**».

الكتمان المحرم

1- من المعلوم أن إظهار الحق بإظهار الشهادة وأن كتمها كتم للحق، ومن التعاون على الإثم والعدوان!! فكم من حق أضيع بسبب كاتم الشهادة! وكم من مؤذٍ تمكن بسبب كتم الشهادة! وكم من مال سلب بكتم الشهادة! وكم من محدود جلد بسبب كتم الشهادة! وكم من منافق اؤتمن بسبب كتم الشهادة! وكم من هاتك للأعراض ترك بسبب كتم الشهادة! ولهذا لو يعلم كاتم الشهادة أن إثمه يعادل إثم شاهد الزور لتمنى أنه أدى الشهادة ولو ضحى بحياته، لما سيلاقيه من الأهوال يوم التغابن، ولهذا قال تعالى ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آَثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة، الآية: 283].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء، الآية: 135]. وقال تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآَثِمِينَ﴾ [المائدة، الآية: 106]. ولقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة، الآية:140].

2- كتمان المرأة لحيضها يترتب عليه أمور شرعية، فقد تتسبب لنفسها أن ينكحها زوج آخر في الحرام وهي في عصمة الأول، أو ينكحها زوجها الأول في الحرام عندما تزعم أنها لا تزال في العدة بعد انتهائها طمعًا في مراجعته. ولهذا نبه الله تعالى: بقوله: ﴿وَلَا

يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية. [البقرة، الآية: 228].

3- كتمان الغني لِمَالِه عن ولي الأمر، أو أرحامه خطره عظيم، وأثمه كبير، في حالة الحاجة إلى جزء منه. فقد قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء، الآيتان:36، 37].

* * * *

كتمان المنافقين

جرت سنة الله في خلقه وجود طبقة منافقة تتستر بالإسلام، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فيكتمون ما في أفئدتهم من غل وحقد وشر، ويدخلون في جوانب المسلمين لكي يكونوا على علم بأحوالهم، وهم سماعون [] لقوم آخرين. وهم على كتمهم نفاقهم يبذلون كل ما في وسعهم للتستر، لكن الغالب أن المنافق ينكشف من قوله أو تصرفه، ولنذكر شيئًا من قول الله تعالى فيهم فقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ **[التوبة، الآية: 74]**. وقد فضحهم الله وكشفهم في القرآن الكريم تأمل ذلك في آيات كثيرة من سور القرآن الكريم []. ولا يُنسى أن هناك من تاب على المتواتر كجلاس، والعبرة فيمن تنطبق عليه آيات القرآن [] وما يعلم بالمفهوم من المنطوق يجده المتتبع للقرآن الكريم وهو باذلوالأيمان لاتخاذها جنة[] ويبذلون كل ما يطلب منهم تقية.

كتمان أشخاص المنافقين:

قد تقتضي المصلحة في الستر على المنافقين وعدم كشفهم،

() أي يتجسسوا.

() ففي سورة التوبة: [الآيات: 44-69، 72-87، 94-96، 101-107].

() مثل: سورة النساء [الآيات: 61، 88، 138، 140، 142، 145]. وسورة الأنفال [الآية: 49 و سورة العنكبوت [الآية: 11]. وسورة المنافقون [الآيات: 1-8]. وسورة التحريم [الآية: 9].

() معنى جُنة بضم الجيم أي وقاية.

والمغزى والسر في هذا يجده المتحقق في الكتاب والسنة، وقد ورد أن الرسول ﷺ أمر حذيفة وعمارًا بكتم أسماء المنافقين. طالع القصة والرواية بطولها في كلام ابن كثير على قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة الآية: 74].



الكتمان من ثرثرة الكلام

لقد أطنب المتكلمون من الكتاب والشعراء وأسهبوا تارة وأوجزوا للترغيب في السكوت ما لم تقتض الحاجة للنطق، وتكلم الحكماء وأهل الأمثال الشيء الكثير حول هذا الشأن وقد جاءت السنة المطهرة فأوضحت مدلول كل كلام ولنذكر طرفًا من ذلك مختومًا بالمسك من السنة:

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يبلغ مجهوده حينئذ في حفظ اللسان حتى يستقيم له، إذ اللسان هو المورد للمرء موارد العطب، والصمت يكسب المحبة والوقار ومن حفظ لسانه أراح نفسه، والرجوع من الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام، والصمت العقل والمنطق يقتضيه.

ومما أنشد قول الكريزي:

أقلل كلامك واستعذ من — إن البلاء ببعضه مقرون
واحفظ لسانك واحتفظ من — حتى يكون كأنه مسجون
وكّل فؤادك باللسان وقل له — إن الكلام عليكما موزون
فزناه وليك محكمًا ذا قلة — إن البلاغة في القليل تكون

وقيل عن أبي الدرداء «لا خير في الحياة إلا لأحد رجلين: منصت واع، أو متكلم عالم». وقد أحسن ابن المبارك فقال:

تعاهد لسانك إن اللسان — سريع إلى المرء في قتله
وهذا اللسان بريد الفؤاد — يدل الرجال على عقله

ونسب إلى الأحنف بن قيس قول: «الصمت أمان من تحريف

اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول، وهيبة لصاحبه» وقيل أعظم الناس بلاء:

[من ابتلي بلسان مطلق وفؤاد مطبق]

ولقد أحسن القائل: واللسان فيه سبع خصال يجب على العاقل أن يعرفها، ويضع كل خصلة منها في موضعها: هو أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وناطق يرد به الجواب، وحاكم يفصل به الخطاب، وشافع تدرك به الحاجات، وواصف تعرف به الأشياء، وحاصد يهذب الضغينة، ونازع يجذب المودة، ومسل يذكي القلوب، ومعز ترد به الأحزاب– قلت [1]: وخصلة أخرى هي أعظمها وأجلها وهي ذكر الله تعالى وتقديسه وتنزيهه. وقد قال تعالى ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾[الحج، الآية:24].

ولقد أحسن صاحب البيت بقوله:

اخفض الصوت إن نطقت		والتفت بالنهار قبل المقال

ولعظم أمر اللسان أحسن علي بن بكار بقوله: «جعل الله لكل شيء بابين وجعل للسان أربعة: الشفتين مصراعين والأسنان مصراعين» وبلغ عن عمر رضي الله عنه قوله: «يا أحنف من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه». وقد قيل: «يملك صاحب الكلام كلامه قبل النطق، ويملكه كلامه بعد النطق، ورب كلمة سلبت نعمة » وأثر عن كعب «العاقبة عشرة أجزاء تسعة منها في السكوت ». وقال الأوزاعي: «ما بلي أحد في دينه ببلاءٍ أضر عليه من طلاقه لسانه».

([1]) أي مؤلف هذه الرسالة.

كتمان وتحذير

غالب ما يقع فيه الإنسان من بلاء بسبب منطقه إن تكلم بلا روية وبلا تقدير وتأن (□). فكم من مستمع سماع للكلام، وكم من مستمع عدو يبحث عن زلة لأخيه، وكم من مستمع جاهل يؤول الكلام لفهمه أو لما يشتهيه، والعاقل من وعظ بغيره.

ويجدر بمن هو على مصلحة من مصالح المسلمين أن يكون وقورًا كثير الصمت إلا فيما فيه مصلحة أو دفع مضرة. وليتنبه القارئ إلى أن البلاء موكل بالمنطق غالبًا (□). فقد قيل أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، «فقال يا رسول الله: أرأيت إذا رأى الرجل على زوجته رجلاً ماذا يفعل؟.. فجاء في المرة الأخرى وقال يا رسول الله: إن الذي سألتك عنه قد ابتليت به». وما أكبرها من مصيبة!.. وهذا وإن الهذيان يقل قيمة الإنسان فيصغر الكبير ويحقر العظيم ويضاق من القريب.

ويستثنى من الكلام ما كان بين الناس مما فيه من الأُنس وتبادل المحبة من غير تعد مخالف للشريعة ولقد قال إبراهيم بن رستم قال: سمعت خارجة يقول: «صحبت عبد الله بن عون خمس عشرة سنة فما أظن أن الملائكة كتبت عليه شيئًا».

(□) أي في المجتمعات أو المكاتب أو أثناء الأسفار فيصرَّح ما هو في صالح الأعداء.

(□) وكان رسول الله ﷺ يحب الفأل الحسن من الكلام الطيب تفاؤلاً بوقوعه، والحوادث التي تصادف بسبب المنطق السيئ لا يتسع لها عدة صفحات مما هو متواتر على الألسنة ومما نسب للسابقين وأمثال ذلك كثيرة.

كتمان حث المسلم عليه

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء، الآية: 36]. وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق، الآية: 18].

قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**» متفق عليه.

وعندما سئل ﷺ أي المسلمين أفضل؟ قال: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**» متفق عليه.

وقال ﷺ: «**من يضمن لي ما بين لحييه**[1] **وما بين رجليه أضمن له الجنة**»[2].

وقال ﷺ: «**إن العبد ليتكلم الكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب**». متفق عليه.

وقال ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه. وإن الرجل ليتكلم الكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه**».

وقد سئل ﷺ من أحد أصحابه- رضوان الله عليهم- ما أخوف ما تخاف عليّ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «**هذا**».

([1]) يعني لسانه.

([2]) طالع خطر الجريمة الخلقية الرسالة الأولى.

وقال ﷺ: «**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي**».

وقال ﷺ: «**وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم**».

* * * *

الفهرس